﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾

ضَرْب المثل أسلوب من أساليب القرآن للبيان وللتوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام، ففي موضع آخر يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] فهذا كثير في كتاب الله، والمثل يُضرب ليُجلِّي حقيقة. والضَّرْب هنا لا يعني إحداث أثر ضار بالمضروب، إنما إحداث أثر نافع إيجابي كما في قوله تعالى: ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل]

وقولنا في مسألة سكِّ العملة: ضُرِبَ في كذا، فكأن الضرب يُحدث في المضروب أثراً باقياً، ففي الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها، وفي العملة بتَرْك أثر بارز لا تمحوه الأيدي في حركة التداول، وكأن ضَرْب المثل يوضح الشيء الغامض توضيحاً بيِّناً كما تُسَكّ العملة، ويجعل الفكرة في الذهن قائمة واضحة المعالم. وللضرب عناصر ثلاثة: الضارب، والمضروب، والمضروب به.

ويُروى في مجال الأمثال أن رجلاً خرج للصيد معه آلاته: الكنانة وهي جُعْبة السهام، والسهام، والقوس، فلما رأى ظبياً أخذ يُعدّ كنانته وقَوْسه للرمي لكن لم يمهله الظبي وفرَّ هارباً، فقال له آخر

وقد رأى ما كان منه : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن ، فصارت مثلاً وإن قيل فى مناسبة بعينها إلا أنه يُضرَب فى كل مناسبة مشابهة ، ويقال فى أىِّ موضع كما هو وبنفس ألفاظه دون أنْ نُغيِّر فيه شيئاً .

فمثلاً ، حين ترى التلميذ المهمل يذاكر قبيل الامتحان ، وحين ترى مَنْ يُقدم على أمر دون أنْ يُعدَّ له عُدَّته لك أنْ تقول : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن . إذن : هذه العبارة صار لها مدلولها الواضح ، وترسَّخَتْ فى الذِّهْن حتى صارتْ مثَلاً يُضرب .

وتقول لمن تسلَّط عليك وادَّعى أنه أقْوى منك : إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً .

والحق سبحانه يضرب لنا المثل للتوضيح ولتقريب المعانى للأفهام ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] يقف هنا بعض المتمحكين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، يقولون : مادام الله تعالى لا يستحى أنْ يضرب مثلاً بالبعوضة فما فوقها من باب أوْلى ، فلماذا يقول ﴿فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

وهذا يدل على عدم فهمهم للمعنى المراد لله عز وجل ، فالمعنى : فما فوقها أى : فى الغرابة وفى القلة والصِّغر ، لا ما فوقها فى الكبَر [1] .

(١) قول ابن كثير فى تفسيره (١/ ٦٤) : « قوله تعالى : ﴿فَمَا فَوْقَهَا.. (٢٦)﴾ [البقرة] فيه قولان : أحدهما : فما دونها فى الصغر والحقارة . وهذا قول الكسائى وأبى عبيد قاله الرازى وأكثر المحققين .

والثانى : فما فوقها لما هو أكبر منها لأنه ليس شىء أحقر ولا أصغر من البعوضة . وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار ابن جرير » .

ومن الأمثلة التي ضربها الله لنا ليوضح لنا قضية التوحيد قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر]

فالذى يتخذ مع الله إلهاً آخر كالذى يخدم سيدين وليتهما متفقان ، إنما متشاكسان مختلفان ، فإنْ أرضى أحدهما أسخط الآخر ، فهو متعب بينهما ، فهل يستوى هذا العبد وعبد آخر يخدم سيداً واحداً ؟ كذلك في عبادة الله وحده لا شريك له . فبالمثال اتضحت القضية ، ورسختْ فى الأذهان ؛ لذلك يقول سبحانه : أنا لا أستحى أنْ أضرب الأمثال ؛ لأننى أريد أن أوضح لعبادى الحقائق ، وأُبيِّن لهم المعانى .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الروم]

فى هذه الآية وبهذا المثل يؤكد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى قمة تربية العقيدة الإيمانية ، يؤكد على واحدية الله وعلى أحديته ، فالواحدية شيء والأحدية شيء آخر : الواحدية أنه سبحانه واحد لا فرد آخر معه ، لكن هذا الفرد الواحد قد يكون فى ذاته مُركّباً من أجزاء ، فوصف نفسه سبحانه بأنه أحدٌ أى : ليس مُركَّباً من أجزاء . أكَّد الله هذه الحقيقة فى قرآنه بالحجج وبالبراهين ، وضرب لها المثل . وهنا يضرب لنا مثلاً من أنفسنا ليؤكد على هذه الوحدانية .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الروم] يعنى : ليس بعيداً عنكم ، وأقرب شيء للإنسان نفسه ، إذن : فأوضح مثل لما غاب عنك أنْ يكون من نفسك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة] أى : من جنسكم تعرفون نشأته ، وتعرفون خُلُقه وسيرته .

لكن ، ما المثَل المراد ؟

المثل : ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

يقول سبحانه : أريد أنْ أضرب لكم مثلاً على أن الإله الواحد يجب عقلاً ألاَّ تشركوا به أشياء أخرى ، والمثل أنِّى أرزقكم ، ومن رزقى لكم موَالٍ وعبيد ، فهل جئتم للرزق الذى رزقكم الله وللعبيد وقلتم لهم : أنتم شركاء لنا فى أموالنا تتصرفون فيها كما نتصرف نحن ، ثم جعلتم لهم مطلق الحرية والتصرف ، ليكونوا أحراراً أمثالكم تخافونهم فى أنْ تتصرفوا دونهم فى شىء كخيفتكم أنفسكم ؟ هل فعلتم ذلك ؟ بل هل تقبلونه على أنفسكم ؟ إذن : لماذا تقبلونه فى حق الله تعالى وترضَوْن أنْ يشاركه عبيده فى ملكه ؟

إنكم لم تقبلوا ذلك مع مواليكم وهم بشر أمثالكم ملكتموهم بشرع الله فائتمروا بأمركم . هذا معنى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم] أى : من البشر ، فهم مثلكم فى الآدمية ، وملكيتكم لهم ليست مُطْلقة ، فأنتم تملكون رقابهم ، وتملكون حركة حياتهم ، لكن لا تملكون مثلاً قتلهم ، ولا تملكون منعهم من قضاء الحاجة ، لا تملكون قلوبهم وإرادتهم ، ثم هو مُلْك قد يفوتك ، كأن تبيعه أو تعتقه أو حتى بالموت . ومع ذلك ما اتخذتموهم شركاء ، فعَيْب أنْ تجعلوا لله ما تستنكفون منه لأنفسكم .

وتلحظ هنا أن الله تعالى لم يناقشهم فى مسألة الشركاء بأسلوب الخبر منه سبحانه ، إنما اختار أسلوب الاستفهام وهو أبلغ فى تقرير الحقيقة : ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

وأنت لا تعدل عن الخبر إلى الاستفهام عنه إلا وأنت تعلم وتثق بأن الإجابة ستكون فى صالحك ، فمثلاً حين ينكر شخصٌ جميلَك فتقول مُخبراً : فعلتُ معك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وقد ينكر فيقول : لا لم تفعل معى شيئاً .

أمّا حين تقول مستفهماً : ألم أفعل معك كذا وكذا ؟ فإنك تُلجئه إلى واقع لا يملك إنكاره ، ولا يستطيع أنْ يفرّ منه ، ولا يملك إلا أنْ يعترف لك بجميلك ولا أقلَّ من أنْ يسكت ، والسكوت يعنى أن الواقع كما قلت .

لذلك يستفهم الحق سبحانه وهو أعلم بخَلْقه ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ .. (٢٨)﴾ [الروم] لا بدّ أنْ يقولوا : لا ليس لنا شركاء فى أموالنا ، إذن : لماذا جعلتم لله شركاء ؟

وقوله تعالى : ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨)﴾ [الروم] سبق أنْ تحدثنا فى مسألة الرزق وقلنا : إن الله تعالى هو الرازق ، ومع ذلك احترم ملكية خَلْقه ، واحترم سعيهم ؛ لأنه سبحانه واهب هذا الملك ، ولا يعود سبحانه فى هبته لخَلْقه ؛ لذلك لما أراد أنْ يُحنن قلوب خَلْقه على خَلْقه قال : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] فاعتبر صدقتك على أخيك الفقير قرضاً يردّه إليك مُضَاعفاً .

والرزق لا يقتصر على المال - كما يظن البعض - إنما رزقك كلّ ما انتفعتَ به فهو رزق ينبغى عليك أن تفيض منه على مَنْ يحتاجه ، وأن تُعدِّيه إلى مَنْ يفتقده ، فالقويُّ رزقه القوة يُعدِّيها للضعيف ، والعالم رزقه العلم يُعدِّيه للجاهل ، والحليم رزقه حلْم يُعدِّيه للغضوب وهكذا ، وإلا فالمال أهون ألوان الرزق ؛ لأن الفقير الذى لا يملك مالاً ولم يتصدق أحد عليه قصارى ما يحدث له أن يجوع ويُباح له فى

هذه الحالة أنْ يسأل الناس ، وما رأينا أحداً مات جوعاً .

لكن ينبغي على الفقير إنْ ألجأته الحاجة للسؤال أنْ يسأل بتلطُّف ولين ، فإنْ كان جائعاً لا يسأل الناس مالاً إنما لقمة عيش وقطعة جبن أو ما تيسَّر من الطعام ليسُدَّ جَوْعته ، وسائل الطعام لا يكذبه أحد لأنه ما سأل إلا عن جوع ، حتى لو سألك وهو شبعان فأعطيتَه ما استطاع أنْ يأكل ، أما سائل المال فقد نظن فيه الطمع وقصد الادخار . إذن : أفضح سؤال سؤال القوت .

لذلك في قصة الخضر وموسى عليهما السلام : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا .. (٧٧) ﴾ [الكهف] فلما منعوهم حتى لقمة العيش استحقُّوا أنْ يُوصفوا بألأم الناس ، وقد أباح الشرع للجائع أن يسأل الطعام من اللئيم فإن منعه فللجائع أن يأخذه ولو بالقوة ، وإذا رفع أمره إلى القاضي أيَّده القاضي ، لذلك يقولون فيه : طالب قُوتٍ ما تعدَّى .

والحق سبحانه تكفَّل لك برزقك ، إنما جعل للرزق أسباباً وكل ما عليك أنْ تأخذ بهذه الأسباب ثم لا تشغل بالك هماً في موضوعه ، وإياك أن تظن أن السَّعْي هو مصدر الرزق ، فالسعي سبب ، والرزق من الله ، وما عليك إلا أنْ تتحرى الأسباب ، فإنْ أبطأ رزقك فأرحْ نفسك ؛ لأنك لا تعرف عنوانه ، أمّا هو فيعرف عنوانك وسوف يأتيك يطرق عليك الباب(١) .

والذى يُتعب الناس أنْ يظل الواحد منهم مهموماً لأمر الرزق مُفكّراً فيه ، ولو علم أن الذى خلقه واستدعاه للوجود قد تكفَّل برزقه لاستراح ، فإنْ أخطأت أسباب الرزق فى ناحية اطمئن فسوف يأتيك من ناحية أخرى .

---

(١) ومن شعر الشيخ رضى الله عنه :

تحرَّ إلى الرزق أسبابَه ... ولا تشغَلَنْ بعدها بالكا
فإنك تجهــلُ عنــوانه ... ورزقك يعرفُ عُنوانكا

ونذكر هنا قصة عروة بن أذينة[1] وكان صديقاً لهشام بن عبد الملك بالمدينة قبل أنْ يتولى هشامٌ الخلافة ، فلما أصبح هشام أميراً للمؤمنين انتقل إلى دمشق بالشام ، أما عروة فقد أصابته فاقة ، فلما ضاق به الحال تذكَّر صداقته القديمة لهشام ، وما كان بينهما من وُدٍّ ، فقصده في دمشق علَّه يُفرِّج ضائقته .

جاء عروة إلى دمشق واستأذن على الخليفة فأذن له ، فدخل وعرض على صاحبه حاجته وكله أمل في أنْ ينصفه ويجبر خاطره ، لكن هشاماً لم يكن مُوفَّقاً في الردِّ على صديقه حيث قال : أتيتَ من المدينة تسألني حاجتك وأنت القائل :

لَقد علَمْتِ ومَا الإسْرافُ مِنْ خُلُقى   أنَّ الذِى هُو رِزْقى سوفَ يَأْتِينى

فقال عروة بعد أن كسر صديقه بخاطره : جزاك الله عنى خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد نبَّهتَ منى غافلاً ، وذكَّرتَ منى ناسياً ، ثم استدار وخرج .

وعندها أدار هشام الأمر فى نفسه وتذكَّر ما كان لعروة من وُدٍّ وصداقة ، وشعر بأنه أساء إليه فأنَّبه ضميره ، فاستدعى صاحب الخزانة ، وأمر لعروة بعطية كبيرة ، وأرسل بها مَنْ يلحق به .

لكن كلما وصل الرسول إلى (محطة) وجد عروة قد فارقها حتى وصل إلى المدينة ، ودقَّ على عروة بابه ، وكان الرسول لَبِقاً ، فلما فتح عروة الباب قال : ما بكم ؟ قال : رسل هشام ، وتلك صلَة

(١) هو : عروة بن يحى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث الليثى : شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه . توفى نحو ١٣٠ هـ [الأعلام للزركلى ٢٢٧/٤] . قال الإمام أبو عبيد البكرى فى « التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه » (ص ٢٩) : « روى عنه مالك وغيره من الأئمة » .

هشـام لك لم يَرْضَ أنْ تحمـلها أنت خـوفاً عـليك من قُطاع الطريق ، أو تحمل مؤونة حَمْلها ، فأرسلنا بها إليك .

فقال عروة : جزى الله أمير المـؤمنين خيراً ، قولوا له لقد ذكرتَ البيت الأول ، ولو ذكرت الثانى لأرحتَ واسترحتَ ، لقد قلت :

لَقد علَمْتِ ومَا الإسْرافُ مِنْ خُلُقى   أنَّ الذِى هُو رِزْقى سوفَ يَأْتينى
أَسْـعى إليْـه فَيُعْيينى تطلـبُه   ولَـوْ قَعَـدْتُ أَتَانى لا يُعنِّـينى (١)

ثم يقـول سبحـانه بعد هذا الـمثل : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] أى : نُبيِّنهـا ونُوضِّحها ، بحـيث لو عُرِضتْ على العقل مجـرداً عن الهوى لا ينتهى إلا إليـها ، ومعنى ﴿ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] من العـقل ، وسُمِّى عـقلاً ؛ لأنه يـعقل صـاحبـه ويقيـده عمـا لا يليق .

والبعض يظن أن العقل إنما جُعل لترتع به فى خواطرك ، إنما هو جاء ليقيد هذه الخواطر ، ويضبط السلوك ، يقول لك : اعقل خواطرك وادرسـها لا تنطلق فيهـا على هواك تفعل ما تحب ، بل تفعل ما يصح وتقول ما ينبغى . إذن : ما قصَّرنا فى البيان ولا فى التوضيح .

ويتـجلَّى دور العقل المـجرد ومـوافقـته حـتى للوحى فى سـيرة الفاروق عمر رضى الله عنه ، وفى وجود رسـول الله ، وهو ينزل عليه الوحى يأتى عمر ويشير على رسول الله بأمور ، فينزل الوحى موافقاً لرأى عمر ، وكأن الحق ـ تبـارك وتعالى ـ يلفت أنظارنا إلى أن العقل الفطرى إذا فكَّر فى أمر بعيداً عن الهوى لا بُدَّ أنْ يصل إلى الصواب ،

(١) ذكر هـذه الأبيات خـير الدين الزركلى فى الأعـلام (٢٢٧/٤) وعزاها لعـروة بن أذينة . وأورد الأصفـهانى أخـباره فى كـتاب « الأغـانى » ص ١٩١١ وذكر هذا الخـبر بيـن عروة وهشام بن عبد الملك ، وأورد هذين البيتين .

وأنْ يوافق حقائق الدين ، أمَّا إنْ تدخَّل الهوى فسد الفكر .

وقوله تعالى ﴿ **كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (٢٨) ﴾ [الروم] العقل وسيلة من وسائل الإدراك فى الإنسان ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٧٨) ﴾ [النحل]

لكن ، كيف تُربَّى الأمور العقلية فى الناس ؟ تُربَّى عن طريق الحواس والإدراك ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتذوق ، واليد تلمس ، والأنف يشمُّ ، إلى آخر الحواس التى توصلنا إليها كحاسة البين ، وحاسة العضل وغيرها .

لذلك احتاط العلماء فى تسمية الحواس فقالوا « الحواس الخمس الظاهرة » ليدعوا المجال مفتوحاً لحواس أخرى ، فهذه الوسائل تدرك المعلومات وتنقلها إلى العقل ليراجعها وينتهى فيها إلى قضايا يجعلها دستوراً لحياته ، فأنت تأكل مثلاً العسل فتدرك حلاوته ، وتأكل الجبن فتدرك ملوحته ، فتتكون لديك قضية عقلية أن هذا حلو ، وهذا مالح .. الخ .

وحين تستقر هذه القضايا فى القلب تصير عقيدة لا تخرج للتفكير مرة أخرى ، ولا تمر على العقل بعد ذلك ، فقد انعقد عليها الفؤاد ، وترسختْ فى الذهن .

ودَوْر العقل أن يعقل هذه القضايا ، وأنْ يختار بين البدائل ، والأمر الذى لا بديلَ له لا عملَ للعقل فيه ، فلو أنك مثلاً ستذهب إلى مكان ليس له إلا طريق واحد فلا مجال للتفكير فيه ، لكن إنْ كان لهذا المكان أكثر من طريق فللعقل أنْ يفاضل بينها ويختار الأنسب منها فيسلكه .

وما دام العقل هو الذى يختار فهو الميزان الذى تَزن به الأشياء ، وتحكم به فى القضايا ؛ لذلك لا بُدَّ له أنْ يكون سليماً لتأتى نتائجه كذلك سليمة وموضوعية ، ومعلوم أن الميزان يختلف باختلاف الموزون وأهميته .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لدقة الميزان فى الشمس والقمر ، فيقول ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن] أى : بحساب دقيق ، ولولا الدقة فيهما ما أخذناهما ميزاناً للوقت ، فبالشمس نعرف الليل والنهار ، وبالقمر نعرف الشهور .

فحين يقول سبحانه ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [الروم] يعنى : أننا عملنا ما علينا من التفصيل والبيان ، وتوضيح الحجج والبراهين ، ولكن أنتم الذين لا تعقلون .

ولما كان العقل هو آلة الاختيار بين البدائل وآلة التمييز أعفى الحق سبحانه مَنْ لا عقل له من التكاليف ، أعفى الطفل الصغير الذى لم يبلغ ؛ لأن عقله لم ينضج بعد ، ولأن حواسّه لم تكتمل .

وتتجلى حكمة الشارع فى قول النبى ﷺ « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[1] فجعل من ضمن تكليف الآباء أنْ يُكلِّفوا هم الأبناء فى هذه السنِّ ، لتكون لهم دُرْبة على طاعة الأمر والنهى فى وقت ليس عليهم تكليف مباشر من الله تعالى .

فإذا كبر الصغير يستقبل تكليفى كما استقبل تكليفك أولاً ، وربُّك ما افتات عليك فى هذه المسألة ، فأعطاك حق التكليف بالصلاة ، وأعطاك حق أنْ تعاقبه إنْ قصَّر ، فأنت الذى تُكلِّف ، وأنت الذى تعاقب .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٥) ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده (١٨٧/٢) بلفظ « مروا أبناءكم » ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

وأعفى المجنون لأن آلة الاختيار عنده غير سليمة وغير صالحة ، وقلنا : إن علامة النضج فى الإنسان أن يصير قادراً على إنجاب مثله ، ومثّلنا لذلك بالثمرة التى لا تحلو إلا بعد نضجها ، بحيث إذا أُكلت زرعتَ بذرتها ، فأنبتت ثمرة جديدة ، وهكذا يحدث بقاء النوع وتستمر الدورة .

فربك لا يريد أن تأكل أكلة واحدة ، ثم تُحرم أو يُحرم مَنْ يأتى بعدك ، إنما يريد أنْ تأكل ويأكل كل مَنْ يأتى بعدك ، فلا تأخذ الثمرةُ حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، وصلاحيتها للإنبات .

وقوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم] يدل على أن الذين يتخذون مع الله شركاء غير عاقلين ، وإلا فما معنى عبادة الأصنام أو الأشجار أو الشمس أو القمر ؟ وقد قالوا بألسنتهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ﴿٣﴾﴾ [الزمر]

فما هى العبادة ؟ العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ونَهْيه ، إذن : بماذا أمرَتْكُم هذه الآلهة ؟ وعَمَّ نهتْكُم ؟ ما المنهج الذى وضعتْه لكم ؟ ماذا أعدتْ لمن أطاعها من النعيم ؟ وماذا أعدتْ لمن عصاها من العذاب ؟ لا شىء إلا أنها آلهة بدون تكاليف ، وما أيسرَ أنْ يعبد الإنسانُ إلهاً لا تكاليف له ، لا يُقيدك فيما تحب من شهوات ، ولا يُحمِّلك مشقة العبادة . وهنا يتضح عدم العقل .

وأيضاً عدم العقل فى ماذا ؟ الله خلقك فى كون فيه أجناس ، والأجناس تحكمها سلسلة الارتقاء ، فجنس أعلى من جنس ، والجنس الأعلى فى خدمة الجنس الأقل .

ولو استقرأتَ أجناس الوجود تجد أن معك أيها الإنسان جنساً

آخر يشاركك الحسَّ والحركة ، لكن ليس له عقل واختيار بين البدائل ؛ لأنه محكوم بالغريزة منضبط بها ، وهذا هو الحيوان الذى لا ينفكُّ عن الغريزة أبداً .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالغريزة الجنسية عند الإنسان وعند الحيوان ، وأن الله تعالى إنما جعلها للتكاثر وحفْظ النوع ، فالحيوان المحكوم بالغريزة يؤدى هذه المهمة للتكاثر ويقف بها عند حدِّها ، فإذا لقَّح الذكر الأنثى يستحيل أنْ تمكِّنه من نفسها بعد ذلك ، وهو أيضاً يشمُّ رائحة الأنثى ، فإنْ كانت حاملاً ينصرف عنها .

أما الإنسان فغير ذلك ؛ لأن له شهوة تتحكم فيه ، فالمرأة تتحمل مشقة الحمل وألم الولادة ، ثم تربية المولود إلى أنْ يكبر ، ولولا أن الله تعالى ربط حفْظ النوع فى الإنسان بشهوة هى أعنف شهوات النفس ما أقدمتْ المرأة على الحمل مرة أخرى .

وما قُلْناه فى غريزة الجنس نقوله فى الطعام والشراب ، الحيوان محكوم فيها بالغريزة المطلقة التى لا دَخْلَ للهوى فيها ، فإذا شبع لا يأكل مهما حاولتَ معه ، بل ونرى الحمار الذى نقول عنه إنه حمار لا يأكل عوداً واحداً بعد شبَعه ، ويمر على النعناع الأخضر مثلاً أو على الملوخية فلا يأكلها ، ويذهب إلى الحشائش اليابسة ، فهو يعرف طعامه بالغريزة التى جعلها الله فيه .

أما الإنسان فيأكل حتى التُّخْمة ، ثم لا ينسى بعد ذلك الحلو والبارد والمهضم .. الخ ذلك ؛ لأنه أسير لشهوة بطنه ، حتى إن من الناس مَنْ يغضب ؛ لأنه شبع فهو يريد ألاَّ يفارق المائدة .

وقد حدثنا رجال حديقة الحيوان بعد زلزال ١٩٩٢ أنهم شاهدوا هياجاً فى الحيوانات المحبوسة فى الأقفاص قبل حدوث الزلزال ، كان

أولها الوطواط ، ثم الزرافة ، ثم التمساح ، ثم القرود ، ثم الحمير ، وكأنهم يريدون تحطيم الأقفاص والخروج منها ، بعدها حدث الزلزال .

وكذلك ما شاهده أهل أغادير بالدار البيضاء قبل الزلزال الذى وقع بها ، حيث شاهدوا الحمير تفك قيودها ، وتفرّ هاربة إلى الخلاء ، وبعدها وقع الزلزال . إذن : لدى هذه الحيوانات استشعار بالزلزال قبل أن يقع .

وقد أعطانا الحق - سبحانه وتعالى - مثالاً لهذه الغريزة فى قصة الغراب الذى علَّم الإنسان كيف يُوارى الميت ، فقال تعالى فى قصة ولَدَىْ آدم : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١) ﴾ [المائدة]

نعود إلى حديثنا عن أجناس الكون لبيان عدم عَقْل هؤلاء الذين جعلوا لله شركاء ، فأجناس الوجود : الإنسان ، ثم الحيوان ، ثم النبات ، ففيه حياة ونمو ، ثم الجماد أقل الموجودات درجةً ، وهو خادم للنبات وللحيوان وللإنسان ، فكل جنس من هذه يخدم الجنس الأعلى منه .

فماذا فعل الكفار حينما عبدوا الأصنام ؟ جعلوا الجماد الذى هو أدنى المخلوقات أرقاها وأعظمها ، جعلوه إلهاً يُعْبد ، وهل هناك أقلّ عقلاً من هؤلاء ؟

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾

اتبعوا أهواءهم ؛ لأنهم اختاروا عبادة مَنْ لا منهجَ له . ولا تكليف ، عبدوا إلهاً لا أمر له ولا نهى ، لا يرتب على التقصير عقوبة ، ولا على العمل ثواباً ، وهذا كله من وحى الهوى الذى اتبعوه .

إياك أن تُقدِّم الهوى على العقل ؛ لأنك حين تُقدِّم الهوى يصير العقل عقلاً تبريرياً ، يحاول أنْ يعطيك ما تريد بصرف النظر عن عاقبته . لكن بالعقل أولاً حدِّد الهوى ، ثم اجعل حركة حياتك تبعاً له .

والبعض يظن أن الهوى شيء مذموم على إطلاقه ، لكن الهوى الواحد غير مذموم ، أما المذموم فهى الأهواء المتعددة المتضاربة ؛ لأن الهوى الواحد فى القلب يُجنِّد القالب كله لخدمة هذا الهوى ، فحين يكون هواى أنْ أذهب إلى مكان كذا ، فإن القالب يسعى ويخطط لهذه الغاية ، فيحدد الطريق ، ويُعد الزاد ، ويأخذ بأسباب الوصول .

وهذا الهوى الواحد هو المعنىَ فى الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] فالنبى ﷺ لم يمنع أن يكون للإنسان هوى تميل إليه نفسه وتحبه ؛ لأن ذلك الهوى يُعينه على الجهاد والكفاح فى حركة الحياة .

أما حين تتعدد الأهواء فلَك محبوب ، ولى محبوب آخر ، فإنها لا شكَّ تتعارض وتتعاند ، والله تعالى يريد من المجتمع الإيمانى أن تتساند كل أهوائه ، وأن تتعاضد لا تتعارض ، وأن تتضافر لا تتضارب ؛ لأن تضارب الأهواء يُبدِّد حركة الحياة ويضيع ثمرتها .

أمّا إنْ كان هواى هو هواك ، وهو هوى ليس بشرياً ، إنما هوى رسمه لنا الخالق - عز وجل - فسوف نتفق فيه ، وتثمر حركة حياتنا

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

من خلاله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]

وسبق أنْ قُلْنا : إن صاحب الصَّنْعة فى الدنيا يجعل معها كتالوجاً يُبيِّن طريقة صيانتها ، والحق - سبحانه وتعالى - هو الذى خلقك ، وهو الذى يُحدِّد لك هواك ، وأول فشل فى الكون أن الناس المخلوقين لله يريدون أنْ يضعوا للبشر قانون صيانتهم من عند أنفسهم .

ونقول : هذا لا يصح ؛ لأن الذى يُقنِّن ويضع للناس ما يصونهم ينبغى أن تتوفر فيه شروط : أولها : أن يكون على علم محيط لا يستدرك عليه ، وأنت أيها الإنسان علْمك محدود كثيراً ما تستدرك أنت عليه بعد حين ، ويتبين لك عدم مناسبته وعدم صلاحيته .

بل وتتبين أنت بنفسك فساد رأيك فترجع عنه إلى غيره ، كما يجب على مَنْ يشرِّع للناس الهوى الواحد أن يكونوا جميعاً بالنسبة له سواء ، وألا ينتفع هو بما يشرِّع ، وإلا لو كانت له منفعة فإنه سوف يميل إلى ما ينفعه ، فلا يكون موضوعياً كما رأينا فى الشيوعية وفى الرأسمالية وغيرها من المذاهب البشرية .

والحق - سبحانه وتعالى - هو وحده الذى لا يُستدرك عليه ؛ لأن علمه محيط بكل شىء لا تخْفى عليه خافية ، والخَلْق جميعاً الذين يشرع لهم أمامه سواء ، وكلهم عباده ، لا يحابى منهم أحداً ، ولا يميز أحداً على أحد ، وليس له سبحانه من خَلْقه صاحبة ولا ولد .

لذلك يطمئننا سبحانه بقوله : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن]

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا ، فربكم ليس له صاحبة تُؤثِّر عليه ، ولا ولد يُحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف ، وسبب الميْل فى مسألة التشريع .

وكذلك هو سبحانه لا ينتفع بما يُشرِّعه لنا ، لأنه سبحانه خلقنا بقدرته ، وهو الغنى عنَّا لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، إذن : فهو سبحانه وحده المستكمل لشروط التشريع ، والمستحق لها سبحانه ، وبيان الهوى الواحد الذى يجتمع عليه كل الخَلْق .

وسبق أن ذكرنا فى مسألة التشريع أنه لا ينبغى أن تنظر إلى ما أُخذ منك ، بل قارن بين ما أخذتَ وما أعطيتَ ، فالذى منعك أنْ تعتدى على الآخرين وأنت فرد واحد منع الخَلْق جميعاً أنْ يعتدوا عليك ، فالتشريع إذن فى صالحك أنت .

إذن : لو عقلنا لأخذنا هوانا الواحد من إله واحد هو الله - عز وجل - لكن الخيبة أنهم ما استمعوا هذا الكلام وما عقلوه .

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٩) ﴾ [الروم] ظلموا لأنهم عزلوا الهوى الواحد ، ونَحَّوْه جانباً ، وأخذوا أهواءً شتى تعارضتْ وتضاربت ، فلم يصلوا منها إلى نتيجة .

وما ظلموا بالشرك إلا أنفسهم ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] ظلموا أنفسهم حينما أعطوها شهوة عاجلة ولذة فانية ، وغفلوا عن عاقبة ذلك ، فهم إما كارهون لأنفسهم ، أو يحبونها حباً أحمق ، وهذه آفة الهوى حينما يسبق العقل ويتحكم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٩) ﴾ [الروم] أولاً : ما هو العلم ؟ فى الكون قضايا نجزم بها ، فإنْ كان ما نجزم به مطابقاً للواقع ونستطيع أن ندلل عليه - كما نُعلِّم مثلاً الولد الصغير : الله أحد ، فإن استطاع أن يدلل عليها فهى علْم ، وإنْ لم يستطع فهى تقليد .

وكمن يقول مثلاً : الأرض كروية وهى فعلاً كذلك ، أما مَنْ يكابر حتى الآن ويقول ليست كروية ، والواقع أنها كروية ، فهذا جهل .

إذن : نقول ليس الجهل ألاَّ تعلم ، إنما الجهل أنْ تعلم قضية على خلاف الواقع ؛ لذلك نُفرِّق بين الجاهل والأمى : الأمى خالى الذِّهْن ليست لديه قضية من أساسه ، فإنْ أخبرته بقضية أخذها منك دون عناد ، ودون مكابرة ، أمّا الجاهل فعنده قضية خاطئة معاندة ، فيحتاج منك أولاً لأنْ تُخرِج القضية الفاسدة لتُلقى إليه بالقضية الصحيحة .

فإنْ كانت القضية لا تصل إلى مرتبة أنْ نجزم بها ، فتنظر : إنْ تساوى الإثبات فيها مع النفى فهى الشك ، إذن : فالشكُّ قضية غير مجزوم بها يستوى فيها الإثبات والنفى ، فإنْ غلَّبْتَ جانب الإثبات ورجَّحته فهو ظن ، أما إنْ غلَّبت جانب النفى فهو وهم . فعندنا - إذن - من أنواع القضايا : علم ، وجهل ، وتقليد ، وظن ، ووَهْم .

فالحق سبحانه يريد الهوى الذى تخدمه حركة حياتنا هوى عن علم وعن قضية مجزوم بها ، مطابقة للواقع ، وعليها دليل ، لكن ما دام هؤلاء قد اتبعوا أهواءهم المتفرقة ، وأخذوها بدون أصولها من العلم ، فسوف أكمل لهم ما أرادوا وأعينهم على ما أحبُّوا ﴿ **فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ..** ﴿٢٩﴾ ﴾ [الروم] فقد ألغوْا عقولهم وعطَّلوها وعشقوا الكفر بعد ما سُقْنا لهم الأدلة والبراهين .

إذن : لم يَبْقَ إلا أنْ أعينكم على ما تعتقدون ، وأنْ أساعدكم عليه ، فأختم على قلوبكم ، فلا يدخلها إيمان ولا يفارقها كفر ، لأننى رب أعين عبدى على ما يريد . وهكذا يُضل الله هؤلاء ، بمعنى : يعينهم على ما هم عليه من الضلال بعد أنْ عَشِقوه ، كما قال سبحانه :

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة]

لذلك نحذر الذين يصابون بمصيبة ، ثم لا يَسْلُون ، ولا ينسون ، ويلازمون الحزن ، نحذرهم ونقول لهم : لا تدعوا باب الحزن مفتوحاً ، وأغلقوه بمسامير الرضا ، وإلا تتابعتْ عليكم الأحزان ؛ لأن الله تعالى رب يُعين عبده على ما يحب ، حتى الساخط على قدره تعالى .

فالمعنى ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ .. ۝٢٩﴾ [الروم] يعنى : مَنْ ينقذه ؟ ومَنْ يضع له قانون صيانته إنْ تخلَّى عنه ربه وتركه يفعل ما بدا له ؟ لا أحد . وأنت إذا نصحتَ صاحبك وكررتَ له النصْح فلم يُطعْك تتخلى عنه ، بل إن أحد الحكماء يقول : انصح صاحبك من الصبح إلى الظهر ، ومن الظهر إلى العصر ، فإنْ لم يطاوعك ضلّله ـ أو أكمل له بقية النهار غشاً .

وسبق أن تحدثنا عن الطريقة الصحيحة فى بحث القضايا لتصل إلى الحكم الصائب فيها ، فلا تدخل إلى العلم بهوى سابق ، بل أخرج كل ما فى قلبك يؤيد هذه القضية أو يعارضها ، ثم ابحث القضية بموضوعية ، فما تقتنع به الموازين العقلية وتُرجِّحه أدخله إلى قلبك .

والذى يُتعب الناس الآن أن نناقش قضية الإسلام مثلاً وفى القلب مَيْل للشيوعية مثلاً ، فننتهى إلى نتيجة غير سليمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝٢٩﴾ [الروم] يعنى : يا ليت لهم مَنْ ينقذهم إنْ أضلَّهم الله فختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، فليس لهم من الله نصير ينصرهم ، ولا مجير يجيرهم من الله ، وهو سبحانه يجير ولا يُجَار عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

الخطاب هنا للنبى ﷺ : يا محمد ، ما دام الأمر كذلك ، وما داموا قد اتبعوا أهواءهم وضلوا ، وأصروا على ضلالهم ، فدَعْك منهم ولا تتأثر بإعراضهم .

كما قال له ربه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

وقال له : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

فما عليك يا محمد إلا البلاغ ، واتركهم لى ، وإياك أن يؤثر فيك عنادهم ، أو يحزنك أنْ يأتمروا بك ، أو يكيدوا لك ، فقد سبق القول منى أنهم لن ينتصروا عليك ، بل ستنتصر عليهم .

وهذه قضية قرآنية أقولها ، وتُسجَّل علىّ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج]

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... ﴿٧﴾ ﴾ [محمد]

هذه قضية قرآنية مُسلَّم بها ومفروغ منها ، وهى على ألسنتنا وفى قلوبنا ، فإنْ جاء واقعنا مخالفاً لهذه القضية ، فقد سبق أنْ

أكدها واقع الأمم السابقة ، وسيحدث معك مثل ذلك ؛ لذلك يُطمئن الحق نبيه ﷺ : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

فهنا ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] أي : دعْكَ من هؤلاء الضالين ، وتفرَّغ لمهمتك في الدعوة إلى الله ، وإياك أنْ يشغلوك عن دعوتك .

ومعنى إقامة الوجه للدين يعني : اجعل وجْهتك لربك وحده ، ولا تلتفت عنه يميناً ولا شمالاً ، وذكر الوجه خاصة وهو يعني الذات كلها ؛ لأن الوجه سِمة الإقبال .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] يعني : ذاته تعالى .

ومعنى ﴿ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] هذه الكلمة من الكلمات التي أثارت تذبذباً عند الذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله ؛ لأن معنى الحنيف : مائل الساقين فترى في رجْله انحناء للداخل ، يقال : في قدمه حنف أي ميل ، فالمعنى : فأقم وجهك للدين مائلاً ، نعم هكذا المعنى ، لكن مائلاً عن أيِّ شيء ؟

لا بُدَّ أن تفهم المعنى هنا ، حتى لا تتهم أسلوب القرآن ، فإن الرسول ﷺ جاء ليصلح مجتمعاً فاسداً منحرفاً يدين بالشرك والوثنية ، فالمعنى : مائلاً عن هذا الفساد ، ومائلاً عن هذا الشرك ، وهذه الوثنية التي جئت لهدمها والقضاء عليها ، ومعنى : مال عن الباطل . يعني : ذهب إلى الحق .

و (أقِمْ) هنا بمعنى : أقيموا ، لأن خطاب الرسول خطاب

لأمتـه ، بدليل أنه سبحـانه سيقـول فى الآية بعدها : ﴿مُنيبين إلَيْه.. (٣١)﴾ [الروم] ولو كان الأمـر له وحده لَقَـالَ منيبـاً إليه ، ومـثال ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿يَـأَيُّها النَّبِىُّ إذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لعِدَّتِهِنَّ .. (١)﴾ [الطلاق]

فالخطاب للأمة كلها فى شخص رسول الله ؛ لأنه ﷺ هو المبلِّغ ، والمـبلَّغ هو الذى يتلقى الأمر ، ويقـتنع به أولاً ليستطيع أنْ يُبلِّغـه ؛ لذلك قال الحق سبـحانه وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٢١)﴾ [الأحزاب]

وقال ﴿حَنِيفًا.. (٣٠)﴾ [الروم] لأن الرسل لا تأتى إلا على فـساد شمل الناس جـميعاً ؛ لأن الحق سبحـانه كما خلق فى الجـسم مناعة مادية خلق فـيه مناعة قيـمية ، فالإنسان تُحـدِّثه نفسه بشهـوة وتغلبه عليها ، فيقع فيها ، لكن ساعة ينتهى منها يندم عليها ويُؤنِّبه ضميره ، فيبكى على ما كان منه ، وربما يكره مَنْ أعانه على المعصية .

وهذه هى النفس اللوامة ، وهى علامة وجود الخير فى الإنسان ، وهذه هى المناعة الذاتية التى تصدر من الذات .

وفَرْق بين مَنْ تنزل عليه المعصـية وتعترض طريقه ، ومَنْ يُرتِّب لها ويسـعى إليها ، وهذا بيِّن فى قـوله تعالى : ﴿إنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. (١٧)﴾ [النساء]

فَـرْق بين مَنْ يذهب إلى باريس لطلب العـلم ، فتـعـترض طريقـه إحدى الفتيات ، ومَنْ يذهب إلى باريس لأنه سمع عما فيها من إغراء ، فهذا وقـع فى المعصيـة رغماً عنه ، ودون ترتيب لها ، وهذا قـصدها وسـعى إليهـا ، الأول غالبـاً ما يُؤنِّب نـفسـه وتتحـرك بداخله النفس اللوامـة والمناعـة الذاتيـة ، أما الآخـر فـقد ألِـفَتْ نفسـه المـعـصيـة

واستشرتْ فيها ، فلا بُدَّ أن تكون له مناعة ، ليست من ذاته ، بل من المجتمع المحيط به ، على المجتمع أن يمنعه ، وأن يضرب على يديه .

والمناعة فى المجتمع لا تعنى أن يكون مجتمعاً مثالياً لا يعرف المعصية ، بل تحدث منه المعاصى ، لكنها مُفرّقة على أهواء الناس ، فهذا يميل إلى السرقة ، وهذا يميل إلى النظر إلى المحرمات ، وهذا يحب كذا .. الخ .

إذن : ففى الناس مواطن قوة ، ومواطن ضعف ، وعلى القوى فى شىء أن يمنع الضعيف فيه ، وأنْ يزجره ويُقوِّمه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فإذا عَمَّ الفساد وطَمَّ كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. (٧٩) ﴾ [المائدة] وفقد المجتمع أيضاً مناعته . فلا بُدَّ أنْ تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، لينقذ هؤلاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠) ﴾ [الروم] فنحن نرى البشر يتخذون الطعوم والأمصال للتحصين من الأمراض ، كذلك الحق سبحانه - وله المثل الأعلى - جعل هذا المصل التطعيمى فى كل نفس بشرية ، حتى فى التكوين المادى .

ألا ترى قوله تعالى فى تكوين الإنسان : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. (٥) ﴾ [الحج]

فالمخلَّقة هى التى تكوّن الأعضاء ، وغير المُخلَّقة هى الرصيد

المختزن فى الجسم ، وبه يعوِّض أىَّ خلل فى الأعضاء المخلَّقة ، فهى التى تمده بما يصلحه ، كذلك فى القيم جاء دين الله فطرت الله التى فطر الناس عليها ، فإذا تدخلتْ الأهواء وحدثتْ الغفلة جاءتْ المناعة ، إما من ذات النفس ، وإما من المجتمع ، وإما برسول ومنهج جديد .

وقد كرَّم الله أمة محمد بأن يكون رسولُها خاتَم الرسل ، فهذه بُشْرى لنا بأن الخير باقٍ فينا ، ولا يزال إلى يوم القيامة ، ولن يفسد مجتمع المسلمين أبداً بحيث يفقد كله هذه المناعة ، فإذا فسدتْ فيه طائفة وجدت أخرى تُقوِّمها ، وهذا واضح فى قول النبى ﷺ :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »[1] .

وقال ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[2] .

وإلا لو عَمَّ الفساد هذه الأمة لاقتضى الأمر شيئاً آخر .

وحين نقرأ الآية نجد أن كلمة ﴿ فِطْرَتَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم] منصوبة ، ولم يتقدم عليها ما ينصبها ، فلماذا نُصبَتْ ؟ الأسلوب هنا يريد أن يلفتك لسبب النصب ، وللفعل المحذوف هنا ، لتبحث عنه بنفسك ، فكأنه قال : فأقم وجهك للدين حنيفاً والزم فطرت الله التى فطر الناس عليها .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٢٠) كتاب الإمارة من حديث ثوبان رضى الله عنه ، وأخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣١١) ، وكذلك مسلم فى صحيحه (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة بلفظ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

(٢) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) والعجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

لذلك يسمى علماء النحو هذا الأسلوب أسلوب الإغراء ، وهو أن أغريك بأمر محبوب وأحثك على فعْله ، كذلك الحق سبحانه يغرى رسوله ﷺ بأنْ يُقيم وجهه نحو الدين الخالص ، وأنْ يلزم فطرت الله ، وألا يلتفت إلى هؤلاء المفسدين ، أو المعوِّقين له .

والفطرة : يعنى الخلقة[1] كما قال سبحانه : ﴿ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف] يعنى : خالقهما ، والفطرة المرادة هنا قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

فالزم هذه الفطرة ، واعلم أنك مخلوق للعبادة .

أو : أن فطرت الله تعنى : الطبيعة التى أودعها الله فى تكوينك منذ خلق اللهُ آدم ، وخلق منه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وسبق أنْ بيَّنا كيف أن فى كل منا ذرة حية من أبينا آدم باقية فى كل واحد منا ، فالإنسان لا ينشأ إلا من الميكروب الذكرى الحى الذى يُخصِّب البويضة ، وحين تسلسل هذه العملية لا بُدَّ أن تصل بها إلى آدم عليه السلام .

وهذه الذرة الباقية فى كل منا هى التى شهدتْ العهد الأول الذى أخذه الله علينا ، وإلا فالكفار فى الجاهلية الذين جاء رسول الله لهدايتهم ، كيف اعترفوا لله تعالى بالخلق : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٣٨) ﴾ [الزمر]

من أين عرفوا هذه الحقيقة ؟ نُقلت إليهم من هذا العهد الأول ،

---

(١) « قال ابن عطية : الذى يُعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التى فى نفس الطفل التى هى مُعدَّة ومُهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن بها » [ذكره القرطبى فى تفسيره ٧/ ٥٢٨٤] .

فمنذ هذا العهد لم يجرؤ أحد من خَلْق الله أنْ يدَّعى هذا الخَلْق لنفسه ، فظلت هذه القضية سليمة فى الأذهان مع ما حدث من فساد فى معتقدات البشر .

وتظل هذه القضية قائمة بالبقية الباقية من هذا العهد الأول ، حتى عند الكفار والملاحدة ، فحين تكتنفهم الأحداث وتضيق بهم أسبابهم ، تراهم يقولون وبلا شعور : يا رب ، لا يدْعون صنماً ولا شجراً ، ولا يذهبون إلى آلهتهم التى اصطنعوها ، فهم يعلمون أنها كذب فى كذب ، ونصب فى نصب .

والآن لا يخدعون أنفسهم ولا يكذبون عليها ، الآن وفى وقت الشدة وحلول الكرب ليس إلا الله يلجئون إليه ، ليس إلا الحق والفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها .

وما دام الله قد فطرنا على هذه الفطرة ، فلا تبديل لما أراده سبحانه ﴿ **لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم] يعنى : ما استطاع أحد أنْ يقول : أنا خلقتُ السموات والأرض ، ولا أنْ يقول : أنا خلقتكم أو خلقتُ نفسى .

﴿ **ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم] أى : الدين الحق ﴿ **وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم] أى : لا يعلمون العلم على حقيقته والتى بيَّناها أنها الجزم بقضية مطابقة للواقع ، ويمكن إقامة الدليل عليها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾